واتفقت المذاهب الإسلامية على عدم الاقتصار على المعارف العقلية، وقرروا حاجة العقل الإنساني إلى مُعين يستعين به في تحديد الأعمال، وتعيين الوجه في الاعتقاد بصفات الله، ومعرفة ما ينبغي أن يعرف من أحوال الآخرة، وتنبيه العقل إلى ما غفل عنه، أو ضعف عن إدراكه، وذلك المعين هو النبي، ووافقهم في ذلك جل الفلاسفة وجميع المؤمنين بالشرائع السماوية. وخالف في ذلك بعض الفلاسفة كبراهمة الهند، حيث اكتفوا بالمعارف، وقرروا عدم حاجة العقل الإنساني إلى هدى النبوة.

المطلب الثاني
حاجة العقل الإنساني إلى هدى النبوة

إيمان العقل.. وإيمان الوحي..

إن الاعتقاد بوجود الله تعالى والإيمان بصفاته الكمالية، كما يتم بواسطة مَن اختصهم الله بالبشارة والنذارة، يتم بالعقل الإنساني على نحو الاستقلال. فإذا وصل مستدل ببرهانه إلى إثبات وجود الله تعالى والإيمان بسبحانه غير السمعية دون أن تبلغه بذلك دعوة نبي كما حدث لبعض مَن سمت عقولهم، وصفت نفوسهم من البشر، ثم انتقل من النظر في ذلك إلى الاعتقاد ببقاء النفس الإنسانية بعد الموت، وأن لها حياة أخرى بعد الحياة الدنيا تتمتع فيها بنعيم أو تشقى فيها بعذاب أليم. وأعتقد أن السعادة والشقاء في تلك الحياة الباقية مقرونان بأعمال الإنسان في هذه الحياة الفانية، سواء أكانت تلك الأعمال قلبية كالاعتقادات، أو بدنية كأنواع العبادات، ثم خلص من ذلك إلى أن سعادة النفس إنما تكون بمعرفة الله وبالفضائل، وأن شقاوتها إنما تكون بالجهل بالله تعالى وبالرذائل، فلا مانع حينئذ من أن يدعو هذا الإنسان المدرك لهذه الحقائق إلى الله، وأن يضع لذلك ما يشاء من القوانين ليدعو بقية البشر إلى الاعتقاد بمثل ما يعتقد وإلى أن يأخذوا من الأعمال بمثل ما أخذ به من حيث لم يوجد شرع يعارضه[1].

---

(١) انظر رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ص٧٢ و٨٩ وفي ٩٠ يقول: «اتفقت كلمة البشر موحدين ووثنيين سليين وفلاسفة إلا قليلاً لا يقام لهم وزن على: أن لنفس الإنسان بقاء تحيا به مفارقة البدن وأنها لا تموت موت فناء (أي لا تزول زوالاً مطلقاً)، وإنما الموت المحتوم هو ضرب من البطون والخفاء. وإن اختلفت منازعهم في تصوير ذلك البقاء وفيما تكون عليه النفس فيه، وتباينت مشاربهم في طريق الاستدلال عليه.

كما فعل أخناتون في مصر الفرعونية، وبرهام في الهند، وكنفيشيوس في الصين، وزرادشت في فارس، وكثير من فلاسفة اليونان مثل أرسطو، وفيثاغورس، وسقراط، وأفلاطون.

ولكن... لما كان ذلك ليس حالاً لعامة الناس. وإنما قد يتيسر لبعض مَن اختصهم الله بكمال العقل، ونور البصيرة، وإن لم تبلغه دعوة نبي، ولو بلغته لكان أسرع الناس إلى اتباعه، حتى هؤلاء قد يضلون بعقولهم من وجه غير ما يليق في الحقيقة أن ينظر منه إلى الجلال الإلهي.

ولما كانت حاجات الإنسان غير محدودة ومعيشته غير مختصة بنحو من الأحوال، وكان ما وهب من القوى الإدراكية مختلفاً باختلاف أصنافه وشعوبه وأشخاصه اختلافاً لا تنتهي درجاته، فما يعتبر مصلحة عند طائفة من الناس قد يعتبر مفسدة عند طائفة أخرى، وما يعتبر فضيلة عند جماعة قد يعتبر رذيلة عند جماعة أخرى.

فلو ترك التشريع والتقنين لعقول البشر لاختلط عليهم الأمر في معرفة الخير والشر في معاملة بعضهم بعضاً. ولما أمكن التمييز بين الحسن والقبيح، والفضيلة والرذيلة - فمثلاً - في الوقت الذي يرى فيه الرأسمالي بإخلاص: أن الحضارة البشرية مهددة بالزوال إذا حلّت الاشتراكية محل الحرية الاقتصادية، يرى الاشتراكي بإخلاص لا يقل عن إخلاص زميله: أنه لا يوجد سوى وسيلة واحدة لصيانة الحضارة البشرية، وهي إلغاء النظام الرأسمالي وإحلال النظام الاشتراكي محله[1].

مع أن الجميع متفقون على أن من الأعمال ما هو حسن ومنها ما هو قبيح، ومن عقلائهم وأهل النظر الصحيح والفكر المعتدل منهم مَن يمكنه إصابة وجه الحق في معرفة ذلك، ولكنهم يختلفون في النظر إلى كل عمل بعينه نتيجة اختلاف أمزجتهم ومناشئهم. فالعقل البشري وحده ليس في استطاعته أن يبلغ بصاحبه ما فيه سعادته في هذه الحياة اللهم إلاّ في القليل النادر[2].

ولما كانت مراتب الأخلاق متفاوتة عند البشر نظراً لتفاوت استعداداتهم واختلاف أصنافهم وبيئاتهم، فإن البشر لو تركوا لعقولهم لما استطاعوا تكملة أخلاقهم وتزكية نفوسهم.

---

(١)(٢) انظر منهاج الإسلام في الحكم لمحمد أسد ص٢٣، ورسالة التوحيد ص٧٦، وأصول الدين الإسلامي للشيخ محمد علي ص١٥٣، والإسلام وحاجة الإنسانية إليه ص١٢١ - ١٢٧.

ولما كان من أحوال الآخرة ما لا يمكن لعقل بشري أن يصل إليه وهو تفضيل اللذائذ والآلام وطرق المحاسبة على الأعمال ولو بوجه ما.

لذلك كله كان العقل البشري محتاجاً في قيادة القوى الإدراكية البدنية إلى ما هو خير له في الحياتين إلى معين يستعين به في بيان وجه الاعتقاد بالله وصفاته وتحديد أنواع الأعمال وبيان النافع منها والضار وبيان ما ينبغي أن يعرف من الحياة الأخرى.

وبالجملة إن العقل البشري بحاجة إلى مَن يُعِينه في تحصيل وسائل السعادة في الدنيا والآخرة.

وهذا المعين يجب أن يكون من جنس البشر، حتى يفهموا منه أو عنه ما يقول، وما يأتي به من عند ربه، وهذا المعين هو النبي ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤].

❑❑❑❑❑❑